العودة من غرداية

. حسن فتح الباب .

[إلى روح مفدى زكريا. شاعر الثورة الجزائرية]

تَسْطع غرادية[1] من وهْج الشمس
يَنْداح الأفقُ وينجاب الغيم
ورُفاتُ الشهداءِ البررة يخضلّ.
تتوارى خلفي الأشباح
من حيث أتيت،
وتُطلّ الأطياف
أجنحةً كالأمواج
بين جذوع النخل
تتراءى فوق الأبراج.
وأراني نُطْفه
في جوفِ الكونِ الغامض
تشتاق إلى ذكرى
من عهد الحلم،
ذرة رمل
في صحراءِ الوهم،
أغنية للملاّح التائه
فوق عبابِ اليمْ
ترنيمة أُمْ
لرضيعٍ جلّله اليتْم،
نفحة أنفاس
من عطرِ الأحبابِ الماضين
من ينبوعٍ دافق
لامرئيٍّ تحت روابي غراديه
تتجلّى آيه
بيضاءً في أطباق الليل
للقافلة السيّارة بين الأنواء،
أنواءِ الأطلال الغرقى
في لجج النسيان.
والأنجم رايه
تَهوي للقمراء
بزغتْ بين قبور الشهداء
وبيوتِ الناجين من الطوفان
يومَ النصرِ الأكبرِ من نوفمبر.

❖ ❖

ووقفتُ على الأعراف
أتأمّل في الأطياف
أنتظر النجمَ الثاقب
النسرَ الغائب
مفدى زكريا
أن يطلع فأناجيه:
يا زكريا الثورة، قد أوفيت العهد
وصدقت الوعد،
يا مجدَ الكلمه
أقوى من قضبان السجّان
من مقصلة الجلاّد
يا تكبيراً من صلوات الأوراس
فوق أعاليها وهضاب الميزاب[2]
موطنُكَ السابحُ في أضواء الأمسِ
وأشواق الغد وخفايا المجهول
موئلك الساجي يَحْلم بالإسراء
في فلكِ الأقمار
خفتتْ أحقادُ الغرماء
عاد الغرباء
واستعلت في واديكَ الرايات
واشتعلتْ أصداء
من قيثارة عشّاق الحريّةَ.

❖ ❖

١ ـ مدينة جزائريّة في الجنوب الصحراويّ، وهي مسقط رأس مفدى زكريا شاعر الثورة الجزائريّة، وصاحبِ النشيد الوطنيّ الجزائريّ «قَسَمًا بالنازلات» الذي لحنّه الموسيقار المصريّ محمد فوزي. وقضى هذا الشاعر الثائر الكبير سنوات طويلة في سجون الاستعمار.

٢ ـ اسم المنطقة الجزائريّة التي تقع فيها واحةُ غرداية.

مفدى زكريا

ها أنت تراني عدتُ لأُلْقى طيفَك

ينشد «قَسَمًا»

من فوق سماواتِ الذكرى

فتجيبُ الأعماقُ وتهتزُّ الآفاق.

أما أنا فرأيتُ المولد،

مولدَكَ السامقَ في غردايه

وبعينيْ مشتاقٍ ملتاعٍ ساءلتُ المهد

أن يأسوَ حرمانيَ من لقياك

حين حللتَ عزيزًا ملءَ الأحداق

بين محبّيك الشعراء

في وطنِ الحب، المجدِ، الثوره

بين ضفاف النهر الكوثر

ورأيتَ الفارسَ عبدَ القادر[1]

في طلعةِ عبد الناصر

وهو يصبّ اللعناتِ

على رأس الشيطان

يومَ العدوان الغادر

وتدوّي صيحتُهُ:

أَتركُ للثوّارِ الأحرار

في أرضِ الأوراس

تأديبَ الطاغية الأفعى پينو[2]

وأمدُّ الأبطال

بشواظٍ من نار

حتى يعتدل الميزان.

❖ ❖

مفدى زكريا

كم سطَّرتَ قوافيك بدمكَ النازف

فوق الجدران الصمّاء السوداء

في زنزانات البرواقيَّه في باربروس[3]

قربانًا لضحايا الحريّه

زُلفى للديموقراطيّه

تخليدًا للّهب القدسيّ

تمجيدًا للشهداء

والسارين على الشوك

كي يُزهر وردُ بساتين الكُرَماء

وكروم الرحماء

أحفادِ ابن زياد

أبناءِ ابن نصير

الفرسانِ العشّاق البرره

المنذورين لبعث الأجداد

ولتحيا لغةُ القرآن

وحديثِ رسول الله

وترتيلِ أبي بكر وعمر

ونجاوى عثمان

وعليّ وأبي ذَرّ.

❖ ❖

مفدى زكريا،

ها أنت تعود إلينا

تُقْرِئنا من ديوانيْك

سحرًا نعرفه في أشعار مقاومةٍ

أبدعها إيلوار

وأراغون ونيرودا،

أطْلعها من تابوت المنفى

ناظم حكمت

شمسًا غرّاء

أقمارًا خضراء

وسنابلَ تُحيي الموتى،

---

١ ـ هو الأمير عبد القادر الجزائريّ الذي قاد حركة مقاومة مسلّحة ضدّ الاستعمار الفرنسيّ في القرن التاسع عشر.

٢ ـ هو رئيس الوزراء الفرنسيّ أثناء العدوان الثلاثيّ الغادر على مصر سنة ١٩٥٦.

٣ ـ اسما سجنيْن في عصر الاستعمار كَتَبَ فيهما مفدى زكريا عديدًا من القصائد.

فيقوم الفقراء
ملحُ الأرض
ويجفّ الطوفان.
ها أنت تعود إلينا
ونعود إليك
تُنْشد إلياذتَك العصماء.
لو أنّك يا زكريا
طال بك العمرُ فأدركت
هذا العصرَ الموبوءَ بداء بني صهيون
وبقهرِ «البيت الأسود»
ورأيتَ ضحايا شارون الأخرق
في الضفّة، في غزّة، في نابلسَ:
محمد الدرّه
إيمان حجو
وعروس القدس وفاء
تفدى بيارات أريحا والمجدل
تَرْفع علمًا من دمها لفلسطين.

❖ ❖

لو أنّكَ يا مفدى
شاهدتَ الشعبَ الثائر كالبركان الهادر
يدرأ عن أُمّته عارَ الصمت
يستعذب طعمَ الموت
كي تتحرّر وتتطهّر أرضُ الزيتون
من دنَس الموصومين الفجّار
شُذَّاذ الآفاق وأعداءِ الإنسان،
لو أنّكَ أطللتَ من الملإِ الأعلى
لانتفضَتْ روحُكَ من هول المأساه
وتذكرتَ جزائرَكَ الريَّا
بدماء الصرعى والجرحى والموؤودين
فتغنيتَ بمجدِ الأطفالِ الأبطال
ونظمتَ قلادة ملحمة أخرى:
إلياذة شعب فلسطين،
وترنّمتَ بآيات النصر الموعود
يومَ يموت الموتُ ويجني
ثمرَ الحرية أبناءُ الشهداء
في الأوراس وفي القدس.

❖ ❖

مفدى زكريا، يا قدِّيسَ الثوار
يا تاجًا فوق جبين الشعراء العرب الأحرار
شوقي، حافظ، والبارودي
العيد خليفة، والشابي
غنّوا فتدفقت الأنهارْ
وتوهّجت الأنجمُ والأقمارْ
وانطلقتْ ملءَ الآفاق الأطيارْ
تشدو في الآصالِ وفي الأسحارْ
وازّينت الأوطان
بأكاليلِ الغار.
مفدى زكريا،
يا علمًا نورانيًّا للأبطال.

القاهرة